تابعين لهم ندفع الأتاوة من مصادر عيشنا، وصار الدير بيت السجن للراهب فيه سوف يسجن الكاهن لأن الرهبان أرادوا ذلك، فقد استأصلونا بمختلف الخدع، وأبقونا بعيدين عن الكنائس، وعندما يقوم الجند، الذين أوكلت إليهم حقوق الحماية،وهم في حالة عوز حقيقي، ويطلبون العون من مخازن الداوية أو الاسبتارية، فيجيبهم هؤلاء: «نحن نمتلك الوسائل لمساعدتكم، لكن لايمكننا أن نقدم شيئاً من خزينة الداوية أو الاسبتارية إلاّ إلى أخواننا خاصة، ومع هذا إذا ما كنتم راغبين في الدخول في رهبانيتنا، وأن تسهموا بشكل ما بممتلكاتكم إلى بيت الرب، فسوف تعفون وتصبحون أحراراً»، وبناء عليه يقوم هؤلاء الرجال المساكين، المتشوقين للتحرر من قيودهم التي ربطوا بها بشدة، وبما أنهم، كما يعتقدون، ليس هناك ممتلكات سوف يفقدونها دون أذى وألم، باستثناء الهبات المقدمة إلى الكنائس، تراهم يقدمون وهم مسرورين على تسليم هذه الهبات إلى الاسبتارية والداوية، فبذلك يمكنهم الحصول على حريتهم، فبوساطة الخداع، لابل، كما ينبغي أن أقول، بخداع مضاعف ثلاث مرات، نجوا من السيمونية (بيع المناصب الدينية)، وكأن الرب لن يلاحظ بأي وسائل أثرت بيوتهم، فقد هلك أبناء الجنود وأحفادهم، وأكثر من هذا ظلما، هلك عدد كبير من الأشخاص ذوي المكانة، بدون فائدة(★).

أندرونيكوس امبراطور القسطنطينية

عندما كان لويس السمين يحكم في فرنسا، وهنري الأول في انكلترا، كان حاكم القسطنطينية أندرونيكوس، الذي اشتهر بولديه:

أندرونيكوس ومانويل، وبعدما جرى إرسال أندرونيكوس من قبل أبيه في حملة عسكرية، وكان مشغولاً فيها،، توفي الأب، ثم احتل مانويل العرش، بشكل غير شرعي، لأنه كان الأخ الأصغر، وقام بابعاد

★-De nugis curialium لوولتر ماب ص ٣٨— ٤٤.

أندرونيكوس لدى عودته، وحمل الأخ الأكبر شكواه ضد الخطأ العظيم الذي اقترف بحقه، ونشرها في المقاطعات والبلدات، فنجح في تسليح نصف العالم تقريباً ضد مانويل، وكان سينتصر عليه، لكن مانويل الذي كان محباً للمال، وجشعاً نحو التشريف، والذي عرف بأن الاغريق فيهم فسولة وعجز، وضعف وخوار، وغير مخلصين نحو أعدائهم، ولا موثوقين وجبناء، قام باستخدامهم في سبيل أغراضه في تلك الآونة، فصب لهم الأموال وأغدق عليهم الوعود، وفضلاً عن هذا، أحضر من أجل حماية أشخاص وممتلكات الاغريق، رجالاً من هذا الجانب من الجبال، الذين نصبهم في الحقيقة للحماية ضد مخاوفه وأعدائه، وبما أنه لم يضن بالمال، ملأ هؤلاء الجياع البلاد بقطعانهم، وبما أنهم دخلوا على شكل قبائل، تكاثروا إلى درجات باتوا فيها حشداً كبيراً، وقام مانويل وهو المنتصر بعملهم وثروته بالعطف على أخيه، في ساعة هزيمته الكاملة ونفيه، ومنحه مملكة على حدود الأتراك، كانت كبيرة بحجمها وقيمتها، غير أنها كانت نائية، وفرض مقابل منحه إياها يمينا تعهد به بتنازل دائم عن الامبراطورية، وربط بذلك ليس شخصه فقط، بل ابنه ووريثه، الشاب أندرونيكوس، وهكذا اعتقد مانويل بأنه أرضى العدالة، فيما يتعلق بقضية اغتصابه للعرش، وكان تقياً في منحته التي أعطاها بدون ارغام.

وبعدموت أندرونيكوس الأب، جدد أندرونيكوس الابن الالتزامات التي فرضها مانويل، وبما أن هذه العلاقات جرى الحفاظ عليها باخلاص حتى أيام البابا لوسيوس Lucius، الذي خلف البابا الاسكندر الثالث، فقد حكم مانويل المتقدم الذكر، الامبراطورية بسعادة عظمى، وقد قبل لابنه مانويل، ابنة لويس، ملك فرنسا، وغادر الحياة مليئاً بالسنين والتشريف وسعيداً، إلاّ في المسألة التالية، وهي أنه خلف ولداً في السابعة من عمره، تحت وصاية اغريقي، عرف بحكم منصبه

باسم البروتوسالفاتور Protosalvaor ، وعندما نقلت الأخبار إلى أندرونيكوس، وكان رجلاً منحط الأخلاق، ذلك أنه أنكر المسيح مرتين في سبيل نيل العون من الأتراك، لابل إنه قام بانكاره الآن للمرة الثالثة، عند ذلك قام بحشد قوة كبيرة من المسلمين، ونقل صراعه من خلال الجزر المجاورة، التي كانت ملكاً لمانويل، ومن خلال المقاطعات المجاورة، واتخذ حجة لعمله، الادعاء بأن البروتوسالفاتور عازم على الزواج من زوجة سيده، وأن الاثنين قد تآمرا على قتل مانويل الشاب، أو أنهما قاما بالحقيقة بقتله،وذلك حتى يحكما معا بمظهر فيه مراعاة للفضيلة.

وفضلاً عن هذا، وعد أندرونيكوس والدموع تنهمر من عينيه أن يكون وصياً مخلصاً جدا على الأمير الشاب، إذا ما اعترف الشعب به أنه جدير بهذه المهمة، وذلك بفضله وعونه، وبذلك تخلص من كل الخداع والتآمر، وتابع البكاء، فأضاف إلى وعوده أعطيات وكل إدعاء في أن يكون مستقيماً، وصدقه الناس جميعاً، وقبلوه بمثابة وصي على الصبي ومعلم.

ثم إنه جاء مع قوة كبيرة، فمزق صفوف القوات التي كانت تحت قيادة البروتو سالفاتور، لأن هذه الصفوف لم تكن تتمتع بشجاعة الجنود، وكانت قد بيعت من قبل قادتها للموت خيانة، فهكذا كان اخلاص الاغريق، ووصل أخيراً إلى البحر الذي يدعى «ذراع القديس جورج»، وبعث أمامه ببعض الاغريق، من أهالي القسطنطينية، ثم عبر البحر بمساعدة ألكسيسوس وفضله، وبعون الأهالي وسمح له بالدخول من خلال باب الدانيين، وذلك بعد دفع ثمن، وإعطاء وعد بعدم شنق السكان، وكان متبقياً في القسطنطينية أناس كان قد جلبهم إلى هناك مانويل، وقد دعاهم السكان المحليون باسم الفرنجة، ومعهم أجانب من كل أمة تقريباً، وقد كره الاغريق هؤلاء كراهية شديدة،

بسبب حسدهم لهم، لأن قدرة الاغريق قد أنهكت بحروب طروادة، أي منذ أيام أجاكس، الذي انتصرت الخديعة ضد شجاعته بشكل غير عادل، ولايوجد في أي مكان بين الاغريق من يستحق أن يكون ساميا أو مشهوراً، وقد انحدروا إلى حد أصبحوا فيه منبوذين ومكروهين من قبل الناس جميعاً، ومرفوضين من قبل كل تكتل صالح، ونعلم أيضاً بأن عصابات من المطرودين والمنبوذين والمدانين قد ربطوا أنفسهم ببلاد الاغريق هذه، وأن الذين هم أدنأ الناس، وأنهم لذلك قد نفيوا من ديارهم وأوطانهم قد حصلوا بين الإغريق على سلطات جعلت كراهية الاغريق لهم تبلغ درجة لايوازيها في لهيبها إلاّ الكراهية ضد الطرواديين لو أنهم عادوا إلى الحياة، وأنا لا أحسدهم على ادعائهم الانتماء إلى العذراء المقدسة جداً (القديسة كاترين)، التي اتبعها الرب من يوم ميلادها الى يوم وفاتها بكرامات وبمعجزات، ولست مبتعداً بأي حال عن الذين اختارهم الرب، وفقط إنني أتكلم عن الجنود، لأن هذا العرق الاغريقي قد انحدر كثيراً في ممارسة القتال بعد تدمير جيش طروادة، ولم يوجد بينهم من استحق المجد العسكري منذ آخيل وأجاكس، وابن تيدوسTydues (ديوميد Diomede) (★).

★ — المصدر نفسه ص ١٠٧— ١٠٩.